٣٠٩٥٦

المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام ـ دار الشؤون الثقافية العامة ـ بغداد ـ الجمهورية العراقية
رئيس مجلس الادارة الدكتور محسن خليل الموسوي

دار الحرية

المجلد التاسع عشر
ربيع ١٩٩٠
العدد الأول

رئيس التحرير طراد الكبيسي

سكرتيرة التحرير هدى شوكت بهنام

www.dorat-ghawas.com

المحتوى

البحوث والدراسات

١ ـ الشعر الجاهلي في ضوء نظرية باري لورد ..... د. عادل سليمان ٥ ـ ٢٠

٢ ـ قراءة جديدة لـ (عيار الشعر) لابن طباطبا ..... طراد الكبيسي ٢١ ـ ٢٧

٣ ـ الاصول الاكدية لعدد من المفردات والمصطلحات المندائية ..... د. صبيح مذلول ٢٨ ـ ٣٥

٤ ـ الغزالي من الاكاديمية الانسايكلوبيدية ..... مدني صالح ٣٦ ـ ٤١

٥ ـ الخط والريازة في العمارة العربية الاسلامية ..... محمود حمدي ٤٢ ـ ٤٧

٦ ـ جهود الخلافة للتحرر من النفوذ السلجوقي ..... د. نافع توفيق العبود ٤٨ ـ ٥٥

٧ ـ كتاب الفخري في الاداب السلطانية لابن الطقطقي ..... د. ناجي التكريتي ٥٦ ـ ٦٩

٨ ـ الجانب العلمي في كتاب الحيوان للجاحظ ..... د. جليل ابو الحب ٧٠ ـ ٧٦

٩ ـ المنسوجات والسجاجيد العربية الاسلامية ..... د. صلاح حسين العبيدي ٧٧ ـ ٨٤

١٠ ـ الشعراء السفراء في عصر ما قبل الاسلام ..... احمد اسماعيل النعيمي ٨٥ ـ ٩٩

النصوص المحققة:

١١ ـ اعلام النساء في الاندلس من كتاب التكملة لابن الابار ..... د. منجد مصطفى بهجت ١٠٠ ـ ١٢٤

١٢ ـ مواد البيان لعلي بن خلف الكاتب ـ القسم السابع والاخير ..... د. حاتم صالح الضامن ١٢٥ ـ ١٥٥

١٣ ـ رسالة ابن قتيبة في الخط والقلم ..... هلال ناجي ١٥٦ ـ ١٧٠

١٤ ـ يحيى بن ماسويه في الجنين وكونه في الرحم ..... محمود الحاج قاسم ١٧١ ـ ١٧٣

١٥ ـ أنشاد النابغة امام النبي (ﷺ) ..... د. مخيمر صالح ١٧٨ ـ ١٨٣

١٦ ـ الكتاب ـ الكتاب سيبويه ـ مقدمة الكتاب ..... د. محمد كاظم البكاء ١٨٤ ـ ٢٠٦

الفهارس والبيليوغرافيات

١٧ ـ الشعراء التعليميون والمنظومات التعليمية ..... د. رزوق فرج رزوق ٢٠٧ ـ ٢٢٦

١٨ ـ مصادر الصغاني وموارده لمؤلفاته اللغوية ..... د. احمد خان ٢٢٧ ـ ٢٤٣

ندوات

١٩ ـ عبد الحق فاضل ـ الباحث اللغوي ..... د. محمد الطوكي ٢٤٤ ـ ٢٤٩

رأي

٢٠ ـ اللام المفخمة فونيماً ..... سعيد الغانمي ٢٥٠ ـ ٢٥٢

عرض ونقد

٢١ ـ كتاب الدلائل للحسن بن البهلول ..... د. كمال السامرائي ٢٥٣ ـ ٢٥٥

٢٢ ـ قراءة في كتاب ـ فصول التماثيل في تباشير السرور ..... د. يونس أحمد السامرائي ٢٥٦ ـ ٢٦٨

٢٣ ـ ملاحظات على ما أنفرد به القراء ..... د. علي حسين البواب ٢٦٩ ـ ٢٧١

٢٤ ـ تصحيح كتاب التعريف لابي عمرو الداني ..... د. حسام النعيمي ٢٧٢ ـ ٢٨٠

مناقشات وإستدراكات

٢٥ ـ تعقيب على مفهوم التراث العلمي العربي ..... طاهر التميمي ٢٨١ ـ ٢٨٦

٢٦ ـ إستدراكات على (ببليوغرافيا عن الرحلات الى العراق) ..... سلمان هادي طعمة ٢٨٧

٢٧ ـ اخبار التراث العربي ..... اسامة ناصر النقشبندي ٢٨٨ ـ ٢٩٢

٢٨ ـ ندوات حول التراث ..... هدى شوكة بهنام ٢٩٣ ـ ٢٩٧

٢٩ ـ رسائل جامعية ٢٩٨

www.dorat-ghawas.com

في الشعريّة العربية

قراءة جديدة لـ (عيار الشعر) ـ لابن طباطبا

طراد الكبيسي

أهمية الكتاب :ـ

تأتي أهمية كتاب (عيار الشعر) لابن طباطبا، على صِغَر حجمه من جهتين :

الأولى : أنه حاول أن يؤسس للشعر «عياراً» ـ قياساً ـ يُميّز به الشعر من اللاشعر، من جهة. والشعر من حيث كونه شعراً من جهة ثانية. وهذا مهم وجديد في تاريخ النظرية الشعرية العربية، وأول تأسيس (للشعرية) بوصفها (علم موضوعه الشعر). كما قال ياكوبسن. أي إبراز السمات التي تجعل من خطاب ما شعرياً، وتلك التي تُصنّفه في درجات أدنى من الشعر الكامل، أو (المعنى البارع في المعرض الحَسَن) حسب تعبير ابن طباطبا.

الثانية : إذ ابن طباطبا الذي ظهر كتابه في الوقت نفسه، تقريباً، الذي ظهرت فيه كُتب أُخرى تُعنى بالشعر. كالشعر والشعراء لابن قتيبة، وكتاب البديع، وطبقات الشعراء لابن المعتز، وقواعد الشعر لثعلب، ونقد الشعر لقدامة بن جعفر.. تميّز ابنُ طباطبا عن سواه، في أنه كان يميل الى تغليب تذوّقه الخاص. أي الى تجربته الشخصية في كتابة الشعر. ورغم أنها لم تكن تجربة كبيرة، الاّ أنها، مع ذلك، دلّته دون شك، على كثير من أسرار عمل الشعر ومعاناته. ويظهر هذا في اختياره للنصوص حين الاستشهاد بها، أو الحكم بالمفاضلة بينها.. الخ. وهو هنا يلتقي مع كثير من النقاد ـ الشعراء كابن المعتز وأبي تمام في إختياراته ـ وكتاب (الشعرية) المعاصرين مثل أدونيس، وياكوبسن، وما كليش... وللسبب نفسه، لم يكن ابن طباطبا معنياً بمنهج في التأليف والتبويب. فكان أن جاء كتابه أشْبَهَ بمقالة استطرادية في النقد، كان اعتماده فيها على صفاء التذوّق الفني دون سواه، الى حد كبير، كما قال د. إحسان عباس[1].

تعريف الشعر :ـ يُعرّف ابن طباطبا الشعر بأنه : «كلام منظوم، بائن عن المنثور. الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم بما خُصّ به من نظم..» وهنا نقف عند الخاصّتين : «كلام منظوم.» و«بائن عن المنثور». وفي الأولى نجد ابن طباطبا لايشذُّ عن جميع مَنْ جعلوا «النظم» شرطاً من شروط الشعر. اللّهم إلاّ الجرجاني الذي قدّم عليه «النظم» الذي هو عبارةٌ عن توخّي معاني النحو في معاني الكلم[2]،واللّهم إلا ابن خلدون الذي رفض حدّ الشعر بالموزون المقفّى، وحدّه بالكلام البليغ المبنيّ على الأستعارة. واللّهم إلاّ القرطاجني والسجلماسي اللّذيْن ذهبا الى أن «التخييل» هو جوهر العمل الشعري. ولكنّ هؤلاء جميعاً لم يُسْقِطوا الوزنَ من شروط الشعر، كليّاً، فما تحقّق فيه الوزن مع الخصائص الشعرية الأخرى فهو شعر. وما خلا من الوزن ـ مع تحقّق تلك الخصائص فهو (قول شعري) بتعبير ابن رشد. وابن طباطبا يلتقي معهم في حالتين :

www.dorat-ghawas.com

-الأولى: أن معرفة النظم ليست شرطاً إلاّ لمن لم يصحّ ذوقه وطبعه: (فمن صحّ طبعه وذوقه لم يحتج الى الأستعانة على نظم الشعر بالعروض التي هي ميزانه..) (ص ٣ - ٤).

والثانية: أنه لم يَعُدَّ من الشعر ماتوفر فيه الوزنُ دون توفر الخصائص الشعرية الأخرى. حيث قال: (والشعر هو ما إنْ عريَ من معنى بديع، لم يَعْرَ من حسن الديباجة. وما خالف هذا فليس بشعر.) (ص ١٧).

أما الخاصّيّة الثانية للشعر، وهو أنه (بائن عن المنثور) فأبن طباطبا يتفق فيها مع الكثير ممن وضعوا النثر الكامل في طرف، والشعر الكامل في الطرف الأخر المضاد. وبين القطبين تتقاسم الأنماط اللغوية الأخرى، حظوظها من الشعرية. فهو عندما يصف بعض (الأشعار المحكمة المتقنة المستوفاة المعاني، الحسنة الوصف، السلسة العبارة) بأنها: (التي قد خرجت خروج النثر سهولةً وإنتظاماً..) (ص ٤٨ - ٤٩) فهو إنّما يصف الشعر بالنثر.. ولكن أيّ نثر؟.

إذا أخذنا بالأمثلة التي أستشهد بها ابن طباطبا، كقول زهير:

سئمت تكاليف الحياة ومَنْ يعش ثمانين حولاً لاأبالك يسأم

أو كقول أبي ذؤيب:

أمن المنون وريبها تتوجّعُ والدهر ليس بمعتب من يَجْزَعُ

نجد ابن طباطبا، يلتقي مع جان كوهن الذي أسمى مثل هذا الشعر بالقصيدة الدلالية التي لاتعتمد إلاّ على الدلالة من جانب اللغة..[3] وهذا القصيد أخرجه حازم القرطاجني من خانة الشعر، ووضعه في خانة النثر - وان كان موزوناً مقفّى - مثله مثل «النظم» في الأخلاقيات والمواعظ والقضايا العلمية كألفية ابن مالك في النحو..[4].

أما اذا أخذنا قول ابن طباطبا كتوصيف نظري، نجده يلتقي مع عدد من مُتذوّقي المداخلة بين النثر والشعر، في الشعر. أي تداخل السمات بما يُحقّق للشعر، شعريّة أعلى. جاء في (الأمتاع والمؤانسة: «أحسن الكلام مارقّ لفظه، ولَطُف معناه، وتلألأ رونقه، وقامت صورته بين نظمٍ كأنه نثرٌ. ونثرٍ كأنه نظمٌ..»[5].

وقال ابو الهلال العسكري في (الصناعتين): «والمنظوم الجيّد ما خرج مخرج المنثور في سلاسته وسهولته واستوائه وقلّة ضروراته..»[6].

وهنا نشعر، مع ياكوبسن، بأن تحديد حدود الشعر باتت بالغة الصعوبة حقاً، لاسيما وأنّ الكثير من السمات التي تُعَدّ خاصة بالشعر، كالجناسات والصور والمجازات والأدوات التنغيمية الأخرى، باتت تشارك فيها فنون لفظية أخرى[7] بما في ذلك كلام الناس العادي. ويحضر هنا قول أبي العتاهية، المشهور: (أكثر الناس يتكلّمون بالشعر وهم لايعلمون، ولو أحسنوا تأليفه كانوا شعراء كلّهم.)[8].

مذاهبُ العرب في الشعر: يرى ابن طباطبا أن سبيل الشاعر الى الشعر هو (الوقوف على مذاهب العرب في تأسيس الشعر.) ولانظن، أنّ في الدعوة هذه، أمراً غريباً. فللعرب كأمة، مثل غيرهم من الأمم، ظروفهم وأخلاقهم وأرضهم وسماؤهم، وأساليبهم في التفكير والتعبير.. ولابد للشاعر من الوقوف عليها، بل هو مُلزم بالوقوف عليها لأنه مشاركٌ ومُتخلّقٌ بها.. والأهم من هذا، حتى لايجيء كلام الشاعر سخيف اللفظ والمعاني، ومُتناوَن في النسج.. (بل يكون كالسبيكة المُفرغة، والوشي المسهم والعقد المنظّم، والنبراس البراق، فتسابق معانيه ألفاظه، فيمتد الفهم بحسن معانيه كألتذاذ السمع بموقع لفظه، وتكون قوافيه كالقوالب لمعانيه.. الخ).

فمن مذاهب العرب، مثلاً، التشبيه. والتشبيه غرضه في الأساس، تقريب ماهو غير عياني، بما هو عياني، ومن هنا كانت أوصافهم لاتعدو ما رأوْه من (صحونهم البوادي، وسقوفهم السماء) وحسب فصول الزمان على إختلافها.. (وكلّ متولّد من وقت نشوئه، وفي حال نموّه الى حال إنتهائه) (ص ١٠) فاذا (تأمّلت أشعار العرب، وفتّشت جميع تشبيهاتها، وجدتها على ضروب مختلفة تتفرّج أنواعها، فبعضها أحسن من بعض، وبعضها ألطف من بعض، فأحسن التشبيهات ما إذا عكس لم ينتقض، بل يكون كل شبهٍ بصاحبه مثل صاحبه، ويكون صاحبهُ مثله مشبهاً به صورة ومعنى. وربما أشْبَهَ الشيْ الشيْ صورةً وخالفَهُ معنىً، وربّما أشبهه معنىً وخالفه صورةً، وربما قاربه وداناه أو شامَّهُ. وأشبهه مجازاً لاحقيقة.) (ص ١١). أيْ أنك لن تجد تشبيهاً مهما بولغ في إستغرابه وشذوذه إلاّ وله أصل ومعنى لأنّ العرب «أدقّ طَبْعاً من أنْ يلفظوا بكلام لا معنىً تحته.

www.dorat-ghawas.com

وربما خفيَ عليك مذهبهم في سنن يستعملونها بينهم في حالات يصفونها في أشعارهم، فلا يمكنك استنباط ما تحت حكاياتهم، ولا تفهم مثلها إلاّ سماعاً.» (ص ١١)

واذا علمنا أنَّ التشبيه من جنس التخييل والمحاكاة ـ كما يعّده الفارابي وابن سينا والقرطاجني. وأنّه مثل الأستعارة والكناية وكلُّ ما يُحمل على المجاز فيه اتساع وعدولٌ باللفظ عن المعنى الظاهر ـ كما قال الجرجاني ـ يتبيّن لنا أنَّ ابن طباطبا مثل غيره من النقاد يجعل الأنحراف في استخدام اللغة الشعرية عن طريق الأستخدام العادي، هو جوهر الشعر. وهذا يتضح في التقسيمات التي يوردها للشعر: (فمن الأشعار المحكمة الوصف، المستوفاة المعاني، السلسة الألفاظ، قول سحيم عبدبني الحسحاس، وهو يُجسّد واحدة من سنن العرب التي تقول: إذا أحبَّ الرجلُ منهم إمرأةً وأحبَّتْهُ، فلم يشقَّ بُرْقَعها، ولم تَشُقَّ هي رداءه، فانَّ حُبَّهما يفسد، وإذا فعلاهُ دام أمرهما. وفي ذلك قال سحيم:

فكم قد شَقَقْنا من رداءٍ مُحَبَّر ... ومن بُرْقعٍ عن طفلةٍ غيرِ عانس
إذا شُقَّ بُرْدٌ شُقَّ بالبُرْدِ مثله ... دواليك حتى كلُّنا غيرُ لابس

ومن الأشعار المتفاوتة النسج قول النابغة الجعدي:

وشمولٍ قهوةٍ باكرتُها
في التباشيرِ من الصبح الأول

يُريد: في التباشير الأول من الصبح.

أما الأشعار الغثّة المتكلفة النسج، فيُورِدُ لها مثلا قصيدة طويلة للأعشى مطلعها:

بانتْ سعادُ وأمسى حَبْلُها انقطعا
وأحْتلّت الغَمْرَ فالجُدين فالفَرَعا

وهناك أصناف أُخرى من الشعر: (الحسن اللفظ، الواهي المعنى) (الصحيح المعنى، الرثّ الصياغة) (الرديء النسج) (المُحْكم النسج) أما (المعنى الصحيح البارعُ الحَسَنُ، الذي قد أُبرز في أحسن معرض، وأُبهي كسوة، وأرقّ لفظ، فقول مسلم بن الوليد):

وإنّي وإسماعيلُ بعد فراقه ... لكالغمد يوم الرَّوع زايله النصلُ
فأن أعْشُ قوماً بَعْدَهُ أو أزورهُمْ ... فكالوحش يُونيها من الأنس المحْلُ

القصيدة والرسالة:ـ

لاحظنا أنَّ من مذاهب العرب في تأسيس الشعر، ما سُميَ بحُسن التخلُّص في القصيدة من غرض الى آخر. وقد ظنّ بعض الباحثين أنَّ ابن طباطبا عندما نصح الشاعرَ بأنْ (يسلك منهاج أصحاب الرسائل في بلاغاتهم وتصرّفهم في مكاتباتهم، فإنّ للشعر فصولاً كفصول الرسائل..) (ص٦) أن ابن طباطبا قد (محا الفروق بين القصيدة والرسالة النثرية في البناء والتدرج وإتصال الأفكار.)[٩]. والحقيقة ان ابن طباطبا لم يمحُ الفروق، فهي موجودة ولايمكن لأبن طباطبا ألاّ يراها. ولكن ابن طباطبا ـ كما يبدو لي ـ نظر للمسألة من جهتين:

الأولى: أنه يتحدث عن بناء القصيدة بمصطلح عصره (الشعر صناعة) الذي ينتطق سمات القصيدة كما هي من مبتداها لغاية أيامهِ. وقول العتّابي، بأن (الشعر رسائل معقودة، والرسائل شعر محلول) (ص ٧١) يأخذ الجنسين: (الرسائل، والشعر) من منظور ما ينطوي كل جنس منهما على سمات الآخر. لأنه يتحدث في البلاغة التي تعني (الأحكام التي تحدث بالتأليف والتركيب) كما قال الجرجاني. وبرأي الفارابي وابن سينا والقرطاجني، أن الأقوال الخطابية اذا انطوت على بعض السمات الشعرية فهي أقوال شعرية، وخاصة الرسائل ذات النية الكليّة.

الجهة الثانية ـ وهي سند للأولى: فان ابن طباطبا رفض تأسيس الشعر على (تأسيس فصول الرسائل القائمة بنفسها..) وشرط (أنْ تكون القصيدة كلّها ككلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها، نسجاً وحسناً وفصاحة وجزالة ألفاظ ودقة معانٍ، وصواب تأليف..) (ص١٢٦) وهو في هذا ينتهي الى ما انتهى إليه الجرجاني إذ قال: (لانظم في الكلم ولا ترتيب حتى يُعلّق بعضها ببعض ويُبنى بعضها على بعض. وتُجعل هذه بسبب من تلك.)[١٠]. والى ما انتهى إليه البنائيون المحدثون في القول بالشعر الكامل الذي تكوّن مجموع العلاقات المتبادلة لعناصر العمل الشعري، بنية هذا العمل.

مأزق الحداثة في الشعر:

«عيار الشعر» واحد من الكتب الكثيرة والمهمة التي جاءت نتيجة طرح مفهوم الحداثة في الشعر والذي خلق بلبلة، تجسّدت في المعارك التي دارت حول ابي تمام والبحتري، والمتنبي وخصومه. وقبل هؤلاء بين مَنْ سُمّوا بالشعراء المولّدين

www.dorat-ghawas.com

(المحدثين) كبشار ومسلم بن الوليد وأبي نواس، وبين علماء اللغة والادب والبلاغة كابن الأعرابي والأصمعي وأبي عمرو ابن العلاء... الخ.

يعتقد ابن طباطبا أن (محنة) الشعراء المحدثين أشدّ منها على مَنْ كان قبلهم، لأنهم قد سُبِقوا الى كل معنى بديع ولفظ فصيح، وحيلة لطيفة، وخلابة ساحرة. فأنّ أتوا بما يقصر عن معاني أولئك، ولا يربى عليها لم يتلق بالقبول، وكان كالمطروح المملول. (ص ٨ ـ ٩). وهذه محنة من جهتين: من جهة النقاد (القرّاء) ومن جهة الشعراء. فالنقاد (وخاصة العلماء منهم) اعتقدوا أن القدماء قد ذهبوا بكل شيْ ولم يتركوا بقيّة لمستزيد. والشعراء أنفسهم. خامرهم هذا الشك. وكما يُفهم من مطلع قصيدة عنترة: (هل غادر الشعراء من مُتَرَدَّم) أن عنترة أعتقد هذا المُعتقد، لأنه كان يَعُدّ نفسه مُحْدَثاً ـ كما قال ابن سلاّم. وما تزال هذه المشكلة (الحداثة) قائمة منذ القديم حتى اليوم. وفي كل ثقافة ومكان. فما هي العلّة في رأي ابن طباطبا ونقاد عصره، وحسبما يُستشفّ من المعركة التي دارت بين النقاد حول أبي تمام والبحتري؟

العلّةُ، هي: إعتقاد دعاة القدامى أنّ أشعار المحدثين لاتصدر عن طبع صحيح، أي عفوي وسليقي، كما كانت تصدر أشعار القدماء، فهؤلاء (سبيلهم في منظومها سبيلهم في منثور كلامهم الذي لا مشقة عليهم فيه) (ص ٩). أي أن أشعار المحدثين تصدر عن (تكلّف) عن طبع مازجته الصناعة، وربما غلبت الصناعةُ الطبعَ. كما قيل عن أبي تمام وجرى تمييز البحتري عليه بالطّبع. والصناعة ـ أيّة صناعة ـ في الشعر أو في غيره من الصناعات، تتطلب (ثقافة) دون شك، أي أن يمتلك الشاعرُ خزيناً من الحِرفيّة التي يحيلها الى حرفيّة مخصوصة، تعينه على التميّز عن القدماء وعن أبناء جيله. ويقدم ابن طباطبا للشاعر المُحْدَث في هذا الباب، نصيحة مهمة وخطيرة يسندها بحكاية لخالد بن عبدالله القسري تخصّ الخطابة، تتشابه والرواية التي قصّها أبونواس عن نفسه.

ينصح ابن طباطبا، الشاعر المُحْدَث (في عصره): (بألاّ يَغيّر على معاني الشعر فيودعها شعره. ويخرجها في أوزان مخالفة لأوزان الأشعار التي يتناول منها مايتناول، ويتوهم أن تغييره للألفاظ والأوزان مما يَسْتر سرقته، أو يُوجب له فضيلة، بل يديمُ النظر في الأشعار التي قد إختزناها لتلصق معانيها بفهمه، وترسخ أصولها في قلبه، وتصيرُ موادَّ لطبعه، ويذوب لسانه بألفاظها، فاذا جاش فكره بالشعر أدّى إليه نتائج ما استفاده مما نظر فيه من تلك الأشعار فكانت تلك النتيجة كسبيكة مفرغة من جميع الأصناف التي تخرجها المعادن. وكما قد اغترف من وادٍ قد مدّتهُ سيولٌ جارية من شعاب مختلفة، وكطيب تركّبَ من أخلاط من الطيب كثيرة فيستغرب عيانه، ويغمض مُستَنْبطه، ويذهب في ذلك الى مايحكى عن خالد بن عبدالله القسري فانه قال: «حفّظني أبي ألف خطبةٍ ثم قال لي: تناسها، فتناسيتها، فلم أرِدْ بعد ذلك شيئاً من الكلام إلاّ سهل عليّ».

فكان حفظه لتلك الخطب رياضة لفهمه، وتهذيباً لطَبعه، وتلقيحاً لذهنه، ومادة لفصاحته، وسبباً لبلاغته ولسنه وخطابته.» (ص ١٠).

أما رواية أبي نؤاس المماثلة لرواية خالد بن عبدالله القسري، فهي.

أستأذنَ أبو نؤاس، خَلَفاً في نظم الشعر. فقال له: لا آذن لك في عمل الشعر إلا أن تحفظ ألف مقطوع للعرب. مابين أرجوزة وقصيدة ومقطوعة. فغاب عنه مدّة وحضر إليه. فقال أبونؤاس: قد حفظتها. فقال: انشدها فأنشده أكثرها في عدة أيام. ثم سأله أنْ يأذن له في نظم الشعر. فقال له:

لا آذن لك إلاّ أن تنسى هذه الألف أرجوزة كأنك لم تحفظها.

فقال له: هذا أمر يصعب عليّ. فأنني قد أتْقَنْتُ حفظها. فقال له: لا آذن لك إلا أنْ تنساها. فذهب أبو نؤاس الى بعض الديرة وخلا بنفسه، حتى نسيها. ثم حضر فقال: قد نسيتها حتى كأنْ لم أكن قد حفظتها قطّ. فقال له: الآن آنظم الشعر[١٥].

والعبارة ـ الدلالة في قصة أبي نواس وقصة خالد القسري. هي أن الشاعر، والخطيب كذلك، يخوض عمله كصانع أتقن حِرْفته. لكنه كمبدع في الوقت نفسه، يقضي على صيغة سابقة ليبدع أُخرى مستعملاً المادة نفسها[١٦]. مثله في ذلك مثل (الصائغ الذي يذيب الذهب والفضة المصوغين فيعيد صياغتها بأحسن مما كانا عليه).

www.dorat-ghawas.com

إذن فمحنة المحدثين تكمن في مايُسمّى حديثاً (بالتناص) (وستعثر في أشعار المولّدين (المحدثين) بعجائب آستفادوها ممن تقدمهم، ولطفوا في تناول أصولها منهم، ولبسوها على من بعدهم، وتكثروا بأبداعها فسلمت لهم عند إدعائها، للطيف سحرهم فيها، وزخرفتهم لمعانيها..) (ص ٨) وهذا هو الحقُّ الوحيد المعترف به لهم (للمحدثين) أي التناص بأبداع، فبدون إبداع لن يُسلَّم لهم بأدعاء شيْ.

مثل قول دعبل الخزاعي:

لاتعجبي ياسَلْمَ من رَجلٍ ضَحِكَ المشيبُ برأسهِ فبكى

أخذه من قول الحسين بن مطير:

كلّ يوم بأقحوانٍ جديدٍ تضحك الأرضُ من بكاءِ السماء

للشاعر في هذا حِيَلٌ - والشعر (كلام عن حيلة..) كما قال الفارابي، يسلكها بحيث يخفي (التناص) بأكبر قدرٍ من الأخفاء. (ويكون بذلك كالصائغ الذي يذيب الذهب والفضة المصوغين فيعيد صياغتهما بأحسن مما كانا عليه. وكالصبّاغ الذي يصبغ الثوب على ما رأى من الأصباغ الخسة.) (ص ٧٨).

عمارة القصيدة:

كيف تبنى القصيدة في رأي ابن طباطبا؟.

قال: (فأذا أراد الشاعر بناء قصيدة مخضّ المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكرهِ نثراً.. وأعدَّ له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه، والقوا في التي توافقه، والوزن الذي يسلس له القول فيه. فأذا اتفق له بيت يشاكل المعنى الذي يرومه أثبته، واعمل فكره في شغل القوافي بما تقتضيه من المعاني على غير تنسيق للشعر وترتيب لفنون القول فيه. بل يُعلّق كل بيت يتفق له نظمه، على تفاوت مابينه وبين ما قبله، فأذا كملت له المعاني، وكثرت الأبيات وفّق بينها بأبيات تكون نظاماً لها وسلكاً جامعاً لما تشتت منها. ثم يتأمل ما قد أداه إليه طبعه ونتجته فكرته فيستقصي إنتقاده ويرمّ ما وَهَى منه..) وهكذا يُبدّل ويُغير وينقل في الألفاظ والقوافي والأشعار، (ويكون كالنسّاج الحاذق الذي يُفوِّفه وشْيَهُ بأحسن التفويف ويُسدِّه ويُنيِّره، ولا يهمل شيئاً منه فيشينه. وكالنقّاش الرفيق الذي يضع الأصباغ في أحسن تقاسيم نقشه.. وكناظم الجوهر الذي يؤلّف بين النفيس منها والثمين الرائق.. وكذلك الشاعر لايؤسس شعره على خليط من الألفاظ والكلام والمخاطبات..

«ويسلك منهاج أصحاب الرسائل في بلاغاتهم، وتصرّفهم في مكاتباتهم، فأنّ للشعر فصولاً كفصول الرسائل..) (ص ٥ - ٦).

وأول ما يتبادر الى الذهن من «نصّ» ابن طباطبا الذي حاولنا إختصاره قدر البيان - كأنّنا به، بنّاء يقيم بيتاً من آجرٍ أو لَبِنٍ.. أو نسّاجٌ ينسج درّاعة من الصوف أو القطن.. لافرق! أو نقّاشٌ يضع الأصباغ على الجدران في احسن تقويم! وليس بشاعر. ولا يتحدث عن شعر. ويتضح هذا الخلل في فهم ابن طباطبا لـ«عمارة» القصيدة، عندما نسمع الجرجاني يُبطل هذا التصوّر ويقيم غيره.. قال: (من حيث أنّ الألفاظ اذا كانت أوعية للمعاني فأنها لامحالة تتبع المعاني في موقعها. فأذا وجب لمعنى أن يكون أوّلاً في النطق وجب اللفظ الدالّ عليه أن يكون مثله أولاً في النطق. فأما أن تتصوّر في الألفاظ أن تكون المقصودة قبل المعاني بالنظم والترتيب.. أو أن تحتاج بعد ترتيب المعاني الى فكر تستأنفه لأن تحيّ بالألفاظ على نسقها. فباطلٌ من الظن.. ووهْمٌ يُتخيّل الى مَنْ لايُوفي النظر حقّه»[١٣].

ولسنا ندري اذا كان فهم ابن طباطبا لبناء القصيدة، ينصبُّ على الشعر المحدث، أم على الشعر القديم، أم الأثنين معاً! ذاك أن (السُنَن المستدلةُ منها) مذاهبُ العرب في تأسيس الشعر، لاتتفق مع هذا، وابن طباطبا نفسه يؤكد هذا عندما يقول: (أن سبيل العرب في منظومهم، هو سبيلهم في منثور كلامهم الذي لامشقة عليهم فيه) (ص٩) وأن (مَنْ صح طبعه وذوقه لم يحتج الى الأستعانة على نظم الشعر بالعروض التي هي ميزانه) (ص٣). إذنْ، من أين جاء ابن طباطبا بهذه البِدْعة في بناء القصيدة؟ هل أعتمد تجربته هو في عمل القصيدة، وهو «لم يكن من الفحول في الشعر، وكان أقرب الى أوساطهم وشعره يُعَدُّ من شعر العلماء» أم ان ابن طباطبا أستقى نظريّته في عمل القصيدة من مصادر أخرى؟ ويبدو من استقراء تقسيمات ابن طباطبا للنصوص التي إستشهد بها وإختارها ومايز بينها: (الأشعار المحكمة) (الأبيات المتفاوتة النسج) (الأبيات التي أغرق قائلوها في معانيها) (الأشعار الغثّة النسج) (الشعر القاصر

www.dorat-ghawas.com

عن الغايات) (الشعر الرديء النسج) (الشعر المحكم النسج)... الخ. أنّ ابن طباطبا يرى أن تكون العملية الشعرية (عملية عقلية واعية تمام الوعي)[١٦] وأنّ العدل ـ أو الاعتدال ـ هو الذي يخلق الجمال المؤثر في الفهم، وأن طريق العرب ـ كما فهمها هو من النصوص التي تتميّز بالأنحياز الكبير الى الجانب العقلي على التخييلي، هو الذي أوحىٰ له بذلك. حيث قال: (ومع هذا فأن مَنْ كان قبلنا في الجاهلية الجهلاء، وفي صدر الأسلام، من الشعراء كانوا يؤسسون أشعارهم في المعاني التي ركبّوها على القصد للصدق فيها مديحاً وهجاء. وافتخاراً ووصفاً، وترغيباً وترهيباً، إلاّ ماقد إحتمل الكذب فيه في حكم الشعر: من الأغراق في الوصف، والأفراط في التشبيه. وكان مجرى ما يُوردونه منه مجرى القصص الحق، والمخاطبات بالصدق، فيحابون بما يثابون، أو يثابون بما يحابون) (ص ٩).

ومع هذا، فأن إستقراء نصوص الجاهليين والأسلاميين لاتطّرد مع فهم ابن طباطبا، ولا يطّرد هذا الفهم مع ما قاله هو نفسه: من أن سبيلهم في منظومهم، هو سبيلهم في منثورهم الذي لامشقة عليهم فيه.

لكن ابن طباطبا، مع ذلك، منسجم مع نفسه في إعتبار العقل هو الذي يُحدِّد عنصر القيمة في الشعر. لأن العقل هو الذي يقبل أو يرفض. فالعقل «عِيارٌ» وبالتالي فأن الفهم الثاقب هو الذي يُحدِّد تقبّل الشعر أو رفضه. ومن هنا فأن كلّ مفهوم، مقبولٌ عند ابن طباطبا. وكلّ ما هو غير مفهوم، فهو إغراقٌ وغلوّ. وبالتالي فهو يتجافى ومبدأ اللّذة الذي يؤكد عليه ابن طباطبا، في عِلّة حسن الشعر: (وعيار الشعر أن يورد على الفهم الثاقب فما قَبِله وإصطفاه فهو وافٍ، وما مجّه ونفاه فهو ناقص.) (ص١٤). أما نوعَ اللّذة التي يُولّدها الشعر، فهي الأخرى مرتبطة بمبدأ الأعتدال: (وعلّة كلّ حسن مقبول، الأعتدال. كما أن علّة كلّ قبيح منفيّ، الأضطراب..) (ص١٥). وكل هذا لايكون إلاّ بتوافر العناصر العقلية أو الحسيّة أو الأثنين معاً. وهذه لاتتوافر إلاّ بتناسب وإنسجام عناصر الشعر: (إعتدال الوزن، وصواب المعنى. وحسن الألفاظ) حتى يخرج غير متفاوت النسج، كالسبيكة المفرغة، والوشي المنمنم والعقد المنظم، واللباس الرائق فتسابق معانيه ألفاظه، فيلتذ الفهم بحُسن معانيه كألتذاذ السمع بموتق لفظه..) .(وجماع هذه الأدوات كمال العقل الذي به تتميّز الأضداد، ولزوم العدل وإيثار الحسن، وإجتناب القبيح، ووضع الأشياء مواضعها.) (ص٤ ـ ٥).

واذا كان مبدأ الأعتدال يناسب الحدّ الوسط من الناس. أي الأغلبية. إلا أن ابن طباطبا لايفترض في متذوقي الشعر، مستوى واحد. بل هناك تمايز بينهم لأسباب مختلفة، وبالتالي فأن تذوّقهم مختلف، والأشعار مختلفة في تفاضلها، ومن ثمَّ في تقييم المتلقي لها. قال:

«والشعر على تحصيل جنسه ومعرفة إسمه متشابه الجملة، متفاوت التفصيل، مختلف كأختلاف الناس في صورهم، وأصواتهم، وعقولهم، وحظوظهم وشمائلهم، وأخلاقهم. فهم متفاضلون في هذه المعاني، وكذلك الأشعار هي متفاضلة في الحسن على تساويها في الجنس، ومواقعها من إختيار الناس إياها كمواقع الصور الحسنة عندهم. وإختيارهم لما يستحسنونه منها ولكل إختيارٌ يؤثرهُ، وهوىً يتبعه، وبغية لايستبدل بها، ولا يؤثر سواها.»(ص ٧)

خاتمة:ـ

إن قارئ (عيار الشعر) يكتشف ـ دون شك ـ أن هناك تضيقاً في الرؤية الشعرية في بعض أحكام ابن طباطبا. وهذه حسب تقديرنا، ترجع الى عاملين:

الأول: أن ابن طباطبا اعتمد تذوّقه الخاص للشعر، الى حدٍ كبير، والتذوّق الخاص نتيجة تجربة، أو قراءة، أو مزاج.. ليس كافياً وحده لأن نُحكّمه في المسائل الفنية، لأنه يخلق تعميمات، والتعميمات، غالباً، جائرة في التصوّر النقدي. فالأبداع الفني، طريقهُ الفردانية وليس حاصل جمع «الفرديّات» الذي أطلق عليه ابن طباطبا ونقاد آخرون كالآمدي في «الموازنة» وابن الأعربي، مثلاً، مصطلح «طريقة العرب» أو «مذاهب العرب» أو «سنن العرب» في كتابة الشعر، والتي كثيراً ما أحالوا إليها، أحكامهم النقدية، حيث أُخضعَت هذه أيضاً للتذوق الخاص، أو التقدير الخاص. وإلاّ مَنْ قال بأنَّ للعرب، طريقة واحدة في الكتابة؟ وكيف يتأتّى لشاعر أن يخرق «سنن العرب» في الكلام، اذا لم تكن هذه السنن نفسها تسمح بمثل هذا الخَرْق!.

www.dorat-ghawas.com

العامل الثاني: هو ما يمكن أن نسميه بالعامل العقلي. ونقصد به تحكيم العقل أو «الفهم الثاقب» في الشعر. «فما قبله واصطفاه فهو وافٍ، وما مجّه ونفاه فهو ناقص». وقد قاد هذا، لأن ينفرد ابن طباطبا في موقفه من بين جميع النقاد، في مسألة الصدق والكذب في الشعر. حيث أنه شدّد على أهمية وضرورة الصدق. وإقران الصدق (الحقّ) بالجمال: (والفهم يأنَسُ من الكلام بالعدل الصواب الحق.. ويستوحش من الكلام الجائر والخطأ الباطل) (ص١٤).

واذا كنا نفهم موقف ابن طباطبا الذي عاش في فترة تموج بالتيارات الفكرية والفلسفية والأخلاقية، وقد تأثر بها في منحاه هذا دون شك، إلاّ أننا لانفهم كيف يمكنه أن يحكم العقل أو الفهم في الأبقاع، والصور الناتجة عن الاستعارات والتشبيهات البعيدة والمجازات التي تقلب صور الحقيقة أو تنحرف باللغة عن طريق استخدامها العادي المألوف، خاصة وأنّ الفترة التي شهدها ابن طباطبا (توفي ٣٢٢هـ) قد شهدت «ثورة» شعرية كبيرة في الأساليب وطرق التعبير الشعري، كما شهدت بدايات تأسيس وتأصيل الشعرية العربية.

ومع ذلك، فأن فضل ابن طباطبا يظل كبيراً:

١ ـ فهو، في (عيار الشعر) يُعَدّ من أوائل المؤسسين لنظرية (الشعرية) العربية. ومهما اختلفنا أو إتفقنا مع مقوّمات هذه النظرية، لايفي كونها «نظرية».

٢ ـ ولعل تأكيد ابن طباطبا على البنية الكليّة للقصيدة (أن تكون كلّها ككلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها، نسجاً وحسناً وفصاحة وجزالة الفاظ ودقة معانٍ، وصواب تأليف.. حتى تخرج القصيدة كأنها مفرغة إفراغاً كالأشعار التي استشهدنا بها في الجودة والحسن واستواء النظم، لاتناقض في معانيها، ولا وَهَيَ في مبانيها، ولا تكلّف في نسجها، تقتضي كل كلمة ما بعدها ويكون ما بعدها مُتعلّقاً بها مفتقراً إليها.) (ص ١٢٦ـ١٢٧).

أقول لعلّ هذا الوصف لبنية القصيدة، يضع ابن طباطبا في مصاف النقاد التالين له. بل يضعه في عداد دعاة البنائية الحديثة. ولكن مشكلة ابن طباطبا أنه لم يستطع تصوّر ولادة البُنى اللغوية ـ مادة وشكلاً ـ ولا ولادة وحدة القصيدة هذه، مرّة واحدة. وليست ولادة (بالتقسيط!) وبالفصل بين المعنى والصورة. على نحو ما حكى الجرجاني، وكما جاء في سياق هذا البحث.

٣ ـ ثم أنّ ابن طباطبا في كونه مؤسس نظرية (شعرية) لم يُقِمْ نظريته على (عيار) التذوق الخالص ـ كما ذهب جُلّ الذين كتبوا عنه[٩]. بل جعل للعقل (الفهم الثاقب) حظاً وافراً، رغم أن هذا الفهم كان (عياره): «مذاهبُ العرب» أو سننهم في كتابة الشعر. كما فهمها. وهو ما سوف نلاحظه لدى نقاد آخرين تحايلين له كقدامة بن جعفر في (نقد الشعر) حيث جعل للعقل نصيباً وافراً من المعيارية. وتلك ضرورة لعصر ـ كي نعتقد ـ وإتساع تأثير التيار العقلي.

على أيّة حال، يظل (عيار الشعر) رغم تناقضاته، وعدم نجاحه في حلّ كثير من مشكلات الشعر.. محاولة لإقامة مفهوم للشعر. (فالعيار هو المقياس الذي يُحدّد القيمة على أساس من الخصائص النوعية الملازمة لصورة الشيْ وكيفية إدراكه في آن)[١٠]. وهو ذو صلةٍ، بالعلم من جهة، وبالشعرية التي هي علم موضوعه الشعر، من جهة ثانية.

الإشارات

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ـ و. احسان عباس.

(٢) دلائل الأعجاز: ص٣٣٦.

(٣) بنية اللغة الشعرية: ص١١.

(٤) المنهاج: ص٧٢.

(٥) التوحيدي: ٢ /١٤٦.

(٦) العسكري: ص ١٦٥.

(٧) قضايا الشعرية: ص ١٠ ـ ١١.

(٨) الأغاني: ٤ /٣٩. (٩) د. احسان عباس: المصدر نفسه: ص ١٣٧.

(١٠) دلائل الأعجاز: ص ٩٨.

(١١) عن كتاب: (الكتابة والتناسخ) لعبد الفتاح كيليطو: ص٢٠.

(١٢) نفسه: ص٢٢. (١٣) دلائل الأعجاز: ص ٩٦ ـ ٩٧.

(١٤) د. احسان عباس: المصدر نفسه: ص١٤٥.

(١٥) مثل د. احسان عباس. ود. جابر عصفور في (مفهوم الشعر).

(١٦) مفهوم الشعر د. جابر عصفور: ص٢٠.

(*) هذا وقد أشرنا الى أرقام صفحات المقتبسات من كتاب (عيار الشعر) في مواضعها. يرجى ملاحظة ذلك.

www.dorat-ghawas.com